﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾ [الزُّمر: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أقربُ النّاسِ إلى اللهِ أهلُ الصِّدقِ والتَّصْديقِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ ما يلقاه المُتَّقون من أجرٍ عظيم ورزقٍ كريم، وهم في هذا المقامِ الرَّفيعِ بقولِهِ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ بمثابةِ تعليلٍ لهذا الجزاءِ الذي يُجزاه المحسنون من اللهِ، وهو جزاءٌ يُضاعف فيه الإحسانُ إلى المُحسنِ، قال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ فبهذا الإحسان يمحو اللّه عنهم أسوأ ما في صحائفهم من الأعمال[1].

المُصدِّقون غيرُ معصومين قبلَ الإيمانِ وبعدَه

لمّا قرَّرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ جزاءَ الذي جاء بالصِّدْقِ والذي صدَّقَ به، وأنَّه وسيعٌ جدًّا، وعلَّلَه بوصفِهم بأنَّهُم من أهلِ المستوى الأعلى من مستوياتِ مقامِ الإحسانِ الذي يعبدونَ اللّهَ فيه؛ كأنّهم يَرَوْنَه، وكانَ مِثْلُهُم قدوةَ الرّاغبينَ في الدُّخولِ في دائرةِ عبادةِ اللّه وحده؛ مع إخلاصِ العبادةِ له؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِثْلَهُم مع كمالهم غيرُ معصومٍ من الوقوعِ في بعضِ المعاصي والمُخالَفاتِ قبلَ الإيمانِ وبعدَه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إخلاصُ العبادةِ للهِ بابُ الوصولِ إلى الإحسانِ

هذه الآيةُ تُبيِّن جانبًا من مظاهرِ تكريمِ اللّهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ المحسنين بقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ في الدُّنيا من الأعمالِ السَّيِّئةِ بسببِ ما كان منهم من توبةٍ وإنابةٍ ممّا اجترحوا من السّيئاتِ فيها، ويثيبهم اللّهُ على طاعتِهم في الدّنيا بأحسنِ ما عملوا، وهو الثّوابُ العظيمُ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 1153.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لامُ التّعليلِ وهى متعلِّقةٌ بالمُحسنين؛ أي: الذين أحسنوا لكي يُكَفِّر، ويجوزُ أن تتعلّق بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ والمعنى: بَشّرهم اللّه بذلك ليُكفِّر؛ لأنَّ التّكفير لا يكون إلّا بعد التّيسيرِ للخيرِ[1].

ثـــوابُ أهـــلِ الصِّدْقِ الذي لا حدودَ له يَسْبِقُ التَّكْفيرَ والمُجازاةَ

دلالةُ ذِكْرِ قولِهِ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

ذَكَر القرآنُ هذه البشارةَ من بابِ إعلامِهم بها ليطمئنّوا على عدمِ مؤاخذتِهم على ما سبقَ منهم في الجاهليّةِ من الشِّركِ وعبادةِ الأصنامِ وارتكابِ الفواحشِ.

بلاغةُ مجيءِ الأسلوبِ القرآنيِّ على خلافِ الظّاهرِ:

ظاهرُ التّعبيرِ القرآنيّ يقتضي تقديمَ تكفيرِ أسوأ الذي عملوا ومجازاتَهم على أحسنِ عملِهم؛ ليُعطيَهم ما يشاؤون؛ لأنَّ التّكفيرَ والمجازاةَ يَسْبقانِ الأجرَ، ولكنَّ الكلامَ جاءَ على هذا التّرتيبِ؛ ليفيد خصوصيَّةَ معنًى لأهل الصِّدْق؛ وهو أنَّ اللّه سبحانه لا يُكفِّرُ عنهم السّيّئاتِ؛ ليُثيبَهُم، وإنّما أثابَهُم الثّوابَ الذي لا حدودَ له؛ ليُكفّر عنهم، ولتُصْبِح سيّئاتُهم مكفورةً ومُكفَّرةً بهذا العطاءِ، وأنّ حسابَهم حسابٌ يسيرٌ، ولا يكون حسابُهم مُنْقِصًا لهذه الدّرجة من العطاءِ، والذي وُعِدَ بأنَّ له ما يشاءُ كأنّه أُلْغِيَ حسابُه؛ لأنّه ليس هناك ثوابٌ أعلى من أنْ يكون لك ما تشاءُ[2].

لـيـس هـنـاك ثـوابٌ أعـلى من أنْ يكون لك ما تشاءُ

دلالةُ التّعبيرِ بالتّكفيرِ في قولِهِ: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾:

عبَّر القرآنُ بالتَّكْفير الذي هو من بابِ (كَفَرَ) في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ لأنَّ سَتْرَ السَّيِّئ من

سَـــتْرُ الأســـوأِ من الذّنوبِ من كمالِ الإحسانِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 12/ 539.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 10، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 242.

الإحسانِ، وسَتْرُ الأسوأِ من كمال الإحسانِ؛ وقد وصفَهم تعالى من قبلُ بالإحسانِ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وعُبِّر به أيضًا؛ لأنّهم لَمّا صدَّقوا بالصِّدْقِ أعلنوه؛ إذ إعلانُه لازمُ التَّصديقِ به؛ فأثابَهُم اللّه بسَتْرِ ما كانَ منهم من سيّئاتٍ.

دلالةُ صيغةِ (فَعَّلَ):

كـثرةُ التَّكفير للسَّيّئاتِ دليلٌ عـلى كـامِـلِ مَحْوِها

عبَّر القرآنُ بالتَّكْفيرِ في قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ على صيغةِ (فَعَّل) دون (فعل)؛ للدّلالةِ على الإحسانِ الإلهيِّ فيه بتعظيمِه؛ لِما فيه من معنى التَّكثيرِ في الفِعْلِ؛ فهو سبحانَه لا يتركُ لهم صغيرةً ولا كبيرةً من سيّئاتِهم إلّا ويسترُها.

دلالةُ التّعبيرِ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ دون الصَّريحِ:

تكفيرُ السّيّئاتِ يـدلُّ عـلى عِـلْـمِ اللهِ الشّامِلِ

نظَم القرآنُ معنَى التّكفيرِ مصدرًا مُؤوّلًا في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ دونَ المصدرِ الصّريحِ: (لتكفير)؛ للدّلالةِ على عظيمِ مَحَبَّةِ اللّهِ لأهلِ الصِّدْقِ؛ فهو يُحيطُ بكلِّ ما كانَ منهم، ولأنَّ المصدرَ المُؤوَّل يُلحظُ فيه الزَّمنُ بخلاف المصدرِ الصَّريح؛ لذلك فهو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّ صدورَ السّيّئاتِ منهم إنّما كان في وقتٍ دون وقتٍ؛ فكان على جهةِ التّجدُّدِ؛ فلَمّا كان تكفيرُ سيّئاتهم من شأنِه أنْ يَرْفعَ الحرَجَ عنهم، ويُدْخِلَ السُّرورَ عليهم؛ كفَّر تعالى عنهم سيّئاتهم على جهة التّعديدِ والاستمرار؛ إيماءً إلى أنَّ هذا التّكفيرَ كان كلُّه سرورًا وسعادةً، ويؤيِّدُ هذا كونُه بعدَ أنْ يُثابوا، فاللّهُ أثابَهُم؛ ليُكفِّرَ عنهم سيئاتِهم.

سِرُّ إظهارِ اسْمِ الجلالةِ في موضِعِ إضمارِ الرَّبِّ:

إظـهـارُ اسـمِ الجلالةِ إيقاظٌ لبصيرةِ المُتلقّي

أسنَد القرآنُ فِعْلَ التّكْفيرِ إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مع سبْقِ ذِكْرِه بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ للدّلالةِ على الألوهيّة؛ إذ لا يَقْدِرُ على الغفران لِمَن يريدُ إلّا من له مُطلقُ التَّصرُّفِ، وللدَّلالة على زيادةِ تمكُّنِ الإخبارِ بتكفيرِ سيئاتِهم تمكينًا يُطمئنُ نفوسَهم بوعد اللّه

الذي لا رادَّ لحُكمه؛ فهو الإله الحقُّ له أنْ يفعلَ ما يشاء، فلا يُسأل عمّا يفعلُ؛ كإثابتِه أهلَ الصِّدْقِ هذه الإثابةَ العَليَّةَ قبلَ؛ ليكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويُثيبَهم على الأحسن من عملهم. وللإشارة إلى أنّه تعالى هو الذي هداهُم إلى المقام الأعلى في الإحسانِ، والمعنى: ليُكفِّر اللّهُ الذي نَصَبَ المُحْسِنُ جلالَه وجمالَه بينَ عيْنَيْه؛ فاستغْرَق في صفاته ابتغاءَ مرضاتِه فعبدَه؛ كأنَّه يراهُ. ولزيادة تمكُّن الإخبار بتكفير سيّئاتهم تمكينًا؛ لاطمئنانِ نفوسهم بوعد ربِّهم[1].

دلالةُ التّعبير بـ (عن) في قوله: ﴿عَنْهُمْ﴾:

طـهـارةُ أهـلِ الإحـسـانِ من السَّيِّئاتِ

آثر السّياق القرآنيُّ التَّعبير بـ (عن) في قوله تعالى: ﴿عَنْهُمْ﴾؛ لأنَّ معناه المُجاوَزَةُ؛ كما في قولك: (رميتُ عن القوس)؛ لأنّه يُقذف عنها بالسّهم، ويُبعدُه، فدلَّتْ هنا على تطهُّر أهلِ الصِّدْق والتّصديقِ من السّيّئاتِ، وأنَّ شيئًا منها لا يلتصقُ ولا يتعلَّقُ بهم، ولا يُنْسَبُ إليهم؛ وهذا من كمال الإحسان الإلهيِّ إليهم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُمْ﴾:

حسناتُ أهلِ الصِّدْقِ تغلبُ سيّئاتِهم

قدَّمَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿عَنْهُمْ﴾ على قوله تعالى: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ في قوله تعالى ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، والذي حقُّه التّقديمُ؛ لأنّه مفعولٌ به؛ لبيانِ أنَّهم من اللّه بمكانٍ؛ فهم أهلُ القُرْبِ من رضوانه، وأنَّهُم قدَّموا ما جعلَهُم كذلك؛ وهو الصِّدْقُ والتَّصْديقُ، ولَوْ نُظِمَ الكلامُ على الأصلِ لرُبَّما أفْهَمَ عِظَمَ ما ارتكبوه من سيِّئاتٍ، وهوانَهُم على اللّهِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالسّوءِ مادة وصيغة:

زوالُ الغمِّ عينُ الإسعادِ

عبَّر القرآنُ بما هو من بابِ السّوءِ: ﴿أَسْوَأَ﴾ دون غيره؛ لأنَّ السّوءَ هو كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، وتكفيرُ السّوء سببٌ عظيمٌ في إسعادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11.

المُكفَّرِ عنه، وفرحِه وسرورِه؛ وهذا من صميمِ الإحسانِ مُجازاةً على الإحسانِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد جاءت ﴿أَسۡوَأَ﴾ في الآية على وزن (أفْعَل) التَّفضيلِ من (سوأ)، وتَحتملُ وجهيْنِ: أحدُهما أنْ تكونَ ﴿أَسۡوَأَ﴾ على بابِها، وأنَّ هؤلاءِ المُحدَّثَ عنهم فعلوا السَّيِّئَ والأسوأ؛ ووراءَ هذا من المعنَى دلالةٌ جليلةٌ؛ وهي أنَّ هؤلاءِ كانَ يبدرُ منهم السّيِّئُ والأسوأُ، وأنَّ هذا الذي يكونُ منهم لم يَحجبهم عن هذه الدّرجات العاليةِ، ولم يَحرمهم هذا العطاءَ من غير حسابٍ؛ طالما أنَّه ليس من ديدَنِهم. وإذا كُفِّرَ عنهم أسوأُ الذي عملوا؛ كُفِّرَ عنهم ما دونَه من سيِّئ أعمالِهم بدلالةِ الفحوى؛ فأفاد أنّه يُكفِّر عنهم جميعَ ما عملوا من سيّئات؛ فإنْ أُريد بذلك ما سبَق قبل الإسلام؛ فالآيةُ تَعُمُّ كلَّ من صدَّق بالرّسول ﷺ بعد الكفر؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، وإنْ أُريدَ بذلك ما عسَى أنْ يعملَه أحدٌ منهم من الكبائرِ في الإسلام؛ كان هذا التَّكفيرُ خصوصيَّةً لأصحابِ نبيِّنا ﷺ.

ويجوزُ أنْ يكون: ﴿أَسۡوَأَ﴾ على بابه؛ من جهة أنَّ هؤلاءِ لفَرْط ورعِهم يستعظمون ما يكونُ منهم؛ فالسَّيِّئ إذا كان منهم يكونُ عندَهم أسوأ.

وجـــهُ حـمْـلِ (أسوأ) على أصلِ الفعل

ويحتمل أن يكون حَمْلُ ﴿أَسۡوَأَ﴾ على أصلِ الفعل؛ فهو مسلوبُ المُفاضلةِ؛ وإنّما هو مجازٌ في السّوءِ العظيم؛ أي: العملُ الشَّديدُ السّوءِ؛ وهو الكبائرُ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33].

ولفظُ الآية يحتملُ كلَّ ذلك؛ فأهلُ الصِّدق ليسوا جميعًا على درجة واحدة؛ مهما علت درجاتُهُم، وهذا الخبرُ عنهم من الحقِّ تعالى فيه دلالةٌ ظاهرةٌ على الرِّضا[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 10، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 243 - 244.

دلالةُ إضافةِ ﴿أَسْوَأَ﴾ إلى ما بعدَها:

إضافةُ صيغةِ ﴿أَسْوَأَ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ من بابِ إضافةِ الشّيءِ إلى ما بعدَه للقصدِ إلى التّحقيقِ والتّوضيحِ من غيرِ اعتبارِ تفضيلِه عليهم، وذلك بالنّظرِ إلى ما يليق بحالهم من استعظامِ سيئاتِهم وإنْ قلَّت، واستصغارِ حسناتِهم وإن كثُرتْ. ونوعُ الإضافةِ فيها إمّا أنْ تكون حقيقيَّةً؛ على أنَّ الصّيغة على بابِها. وإمّا أنْ تكونَ بيانيَّةً؛ على أنَّ الصّيغة تدلُّ على أصلِ الفعلِ؛ وأنَّ معنَى المُفاضَلة انْتُزِع منها[1].

أهلُ الإحسانِ يجعلون ذنوبَهم نُصْبَ أعيُنِهم للعملِ على هدمِها

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾:

عبّر القرآنُ بقوله: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ دون أنْ يقول: (أسوأ عملهم)؛ للإشارة إلى أنَّهم قومٌ يعترفونَ بأخطائهم، ولا يتحرَّجون من ذلك؛ لأنَّ الموصولَ لا يُعبَّرُ به إلّا وصلتُه معلومةٌ للسّامعِ من قبلُ، أو كالمعلومةِ له؛ بحيثُ إذا سمِعَها سلَّمَ بها؛ فهم لا يتحرَّجون من المواجهة بها أيضًا، ولا يضرُّهُم ذلك. وللتّنبيهِ على أنَّ عَمَلَ مِثْلِهم محلُّ نظرٍ ومُراقَبةٍ من الخَلْقِ؛ لأنَّهم صفوتُهم وأئمَّتُهُم؛ فهو مدحٌ لهم بذلك؛ ولهذا اصطفى القرآنُ ﴿ٱلَّذِى﴾، وآثَرَه على (ما)؛ لأنَّ (ما) أشدُّ غموضًا وإبهامًا من ﴿ٱلَّذِى﴾.

أهلُ الصِّدْقِ لا يُنْكِرون سيّئاتِهم

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿عَمِلُواْ﴾:

عبَّر القرآنُ بقولِهِ: ﴿عَمِلُواْ﴾ صلةً للموصولِ - مُصرّحًا به، وكان من الممكن أنْ يُقال نحوُ: (أسوأ ما كان منهم) - للتّذْكير بأنَّهم بشرٌ يُصيبون ويُخْطِئون؛ فلهم أعمالٌ صالحةٌ كثيرةٌ؛ صدرتْ منهم عن قصدٍ وعِلْمٍ؛ كأعمالِهم السَّيِّئة، وهذا يفتح الباب لمجيءِ قولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ فيتَّصِلُ الكلامُ بعضُه ببعضٍ.

أهلُ الإحسانِ بشرٌ يُصيبون ويُخطئون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 10.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿عَمِلُواْ﴾:

ولمّا كان تكفيرُ السَّيّئاتِ بعد إثابتِهم - في الآخرةِ - نظَم القرآنُ معنى العملِ ماضيًا، وذلك لِما فيه من إيحاءٍ لطيفٍ بأنَّ صدورَ السَّيّئاتِ كان فعلًا منهم، ولم يكن لهم صفةً ثابتةً دائمةً.

بلاغةُ حذفِ عائدِ الموصول:

الآخـــرةُ دارُ الجزاءِ بلا عَمَلٍ

فِعْلُ العملِ يتعدَّى بنفسِه إلى مفعولٍ، والقرآنُ حذفَه في قوله: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، والتّقدير: (أسوأ الذي عملوه)، وفي قولِه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، والتّقدير: (بأحسن الذي كانوا يعملونه)، وهذا المحذوفُ هو عائدُ الموصولِ؛ ففيه فائدةُ الإيجازِ؛ للتّنْبيهِ اللّطيفِ على تمحُّضِهم للثَّوابِ والنَّعيمِ في الآخرةِ؛ فهم لا يُشْغَلون بما عملوا في الدُّنْيا، وإنّما هم مشغولونَ بالنَّعيمِ.

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ دونَ غيرِها:

نـوَّرَهُـم بـأنـوارِ الـحَـسَـنِ بعد أنْ طهَّرَهُم من أوْضارِ السَّيِّئ

آثرَ القرآنُ الكريمُ العطفَ بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّها عاطفةٌ لهذه الجملةِ على جملةِ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ فدلَّ العطفُ بها على إشراكِ الثّانيةِ مع الأولى في التَّعليلِ، وهذه الثّانيةُ هي المقصودُ من التّعليلِ للوعدِ الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ومِن مُحسِّناتِ الوصلِ الاتّفاقُ في المُسنَد إليه: ﴿ٱللَّهُ﴾، والتَّضادُّ بين ﴿أَسْوَأَ﴾ و(أحسن)[1]، ولا يتأتَّى هذا التَّشريكُ إلّا من الواوِ.

نكتةُ تَقديمِ تكفيرِ السَّيِّئاتِ على الجزاءِ الحَسَنِ:

أهلُ الصِّدْقِ لا يشعرونَ بضررِ سيّئاتِهم يومَ القيامةِ

قُدِّم تكفيرُ السّيئاتِ على المُجازاةِ بالأجرِ الحَسَنِ مع أنَّ كُلًّا من المعطوف عليه والمعطوفِ علَّةٌ؛ للدّلالةِ على تصويرِ سَبْقِ تكفيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11.

السّيّئاتِ على مُجازاتِهم أجرَهُم؛ فالثَّوابُ بالعطاءِ سابقٌ على تكفيرِ السّيّئاتِ، ولاحِقٌ له أيضًا.

علّةُ التّعبيرِ بالجزاءِ مُكرَّرًا في قولِهِ: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ﴾:

عبَّر القرآنُ بما هو من بابِ الجزاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ﴾ – وقد سبَق ذِكْرُه في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ –؛ للإبلاغِ في تقريرِ كمالِ الثَّوابِ، وعُلوِّ العطاءِ واتِّساعِه؛ وهذا تمهيدٌ لقولِهِ: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك العطاءَ فوقَ أجرِهِم بكثيرٍ.

تقريرُ كمالِ الثَّوابِ وسَعةِ العطاءِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَيَجْزِيَهُمْ﴾:

نظَمَ القرآنُ معنَى الجزاءِ فِعْلًا مُضارِعًا ﴿وَيَجْزِيَهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ النِّعْيمِ الذي يكونُ لهُم، ويكونونُ فيه وتَكرارِه وتجدُّدِه، وهذا مُشاكِلٌ لتكفيرِ السّيّئاتِ من جهةٍ، ولنَظْمِ العملِ فعلًا مضارِعًا: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أيضًا.

تجديدُ الإحسانِ داعٍ بقوّةٍ إلى اسْتِطْعامِه

سِرُّ التَّعبيرِ بالأجرِ دونَ غيرِه:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالأجرِ دون غيرِه؛ لأنَّ الأجْرَ معناه الكراءُ على العملِ؛ وفي هذا تكريمٌ للمحسنين للاعتدادِ بعملِهم الذي أهَمُّ أفرادِه في السّياق المجيءُ بالصِّدْق والتَّصْديقُ به، ولأنَّ في الأجرِ إكرامًا عظيمًا؛ لأنَّ العطاءَ الذي لا حدودَ له والمدلولَ عليه بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هو من محضِ الفضلِ، وفي تسميتِهِ أجرًا تنبيهٌ على أنَّ ما عمله هؤلاء هو أجرُ عملٍ عملوه، وأنَّ الذي عملوه من المجيء بالصِّدْق والتَّصْديق به عند اللّه لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا حدودَ لأجرِه[1].

الصِّدْقُ أصلُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ ولُطْفٍ

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿أَجْرَهُم﴾

أضافَ القرآنُ الأجرَ إلى المُتَّقين المُحسنين في قوله تعالى:

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 244.

﴿أَجۡرَهُم﴾؛ للدّلالةِ على تشريفِهم وعظمتِهم وفخامتِهم باختصاصِهم به؛ ولمّا كان الجزاءُ من جنسِ العملِ كان لا بُدَّ أنْ يكونوا قد اختصّوا بعملٍ صالحٍ؛ وهو المجيءُ بالصِّدْقِ والتَّصْديقُ به؛ فبانَ بهذا غايةُ شرَف ذلك العملِ.

الإضافةُ تشريفٌ واعتدادٌ شديدٌ بالعمل

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِأَحۡسَنِ﴾

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جارَّةٌ للسّببيّةِ، وهي ظرفٌ مستقرٌّ صفةٌ لـ ﴿أَجۡرَهُم﴾، وليست مُتعلِّقةً بالفعل في قوله: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ﴾، والمعنى: يجزيهم أجرًا على أحْسَنِ أعمالِهم. ولمّا كان تعالى مُتفضِّلًا يزيدُ العملَ الصّالحَ ويُربّيه؛ زادَ الجارَّ (الباء) في الجزاءِ؛ إعلامًا بأنّه يجعل الأعمال الصّالحة كلَّها مِثْلَ أعلاها[1].

الاعتدادُ بالعملِ وصفتِه من الحُسْن

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بِأَحۡسَنِ﴾:

التَّعْبيرُ بما هو من بابِ الإحسانِ في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ﴾ يرجعُ به إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ويُضْفي على الجزاء والأجر في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم﴾ معنى الإحسانِ؛ ليكونَ معنى الإحسانِ حاضرًا في السّياقِ بقوّة؛ ليُفْهِمَ ذلك أنَّ عملَهم الأحسنَ هو المجيءُ بالصِّدْقِ والتَّصْديقُ به، والصِّدْقُ جوهرُ إخلاصِ العبادةِ للّه الذي هو جِذْرُ السّورةِ.

لا خلافَ عند العقلاءِ في حُسْنِ الصِّدْقِ والتَّصْديقِ

بلاغةُ صيغةِ التَّفْضيلِ (أحسن):

عبَّر القرآنُ بصيغة أفعل (أحسن)؛ لأنَّ اللّه سبحانه يريدُ أنْ يُجزلَ لهم الثّوابَ؛ فقصَد إلى أحْسَنِ أعمالِهم؛ لأنّها التي توجبُ لهم الأوفرَ، وهذه الصّيغةُ تدلُّ هنا على المُجازاةِ على الحَسَنِ بقرينة معنى الصّيغة نفسِها؛ فإنّه يُؤْذنُ بأنَّ علّة الجزاء هي الحُسْنيَّةُ، وهي تتضمَّنُ أنَّ لمعنى الحُسْنِ تأثيرًا في الجزاءِ؛ فإذا

الجزاءُ الأعلى قد يُهَيْمِنُ على الجزاءِ الأدنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11.

كان جزاءُ أحْسَنِ أعمالهم أنَّ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ كان جزاءُ ما هو دونَ الأحسن من أعمالهم جزاءً دون ذلك؛ بأنْ يُجازوا بزيادةٍ وتنفيلٍ على ما استحقّوه على أحسن أعمالهم بزيادةِ تنعُّمٍ أو كرامةٍ أو نحوِ ذلكَ[1].

عطاءُ اللهِ لعبادِه لا يحدُّه حدٌّ

وأيضًا؛ لَمّا كانتِ المُجازاة على الأحْسَن رُبَّما لا يلزمُ منها المُجازاةُ على الحَسَنِ؛ فقد تكونُ المُكافأةُ على أحْسَنِ الأعمال فحسبُ مع تركِ حَسَنِها، وكانَتِ المُجازاةُ على الحَسَنِ دليلًا على المُجازاةِ على الأحْسَن من باب أوْلى؛ لذلك عبَّر بأفعلِ التّفضيلِ.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿أَسۡوَأَ﴾ و(أحسن):

الطِّباقُ سبيلُ ترابُطٍ وتدبُّرٍ

في الجمع بين كلمة ﴿أَسۡوَأَ﴾ وبين كلمةِ (أحسن) مُحسِّنُ الطِّباقِ[2]. وهذا داعٍ لتأمُّلِ كلٍّ من قِسْمَيِ المعنَى في الآيةِ في نورِ الآخَرِ؛ فيتمكَّنُ المعنَى في النَّفْسِ؛ وهذا إحسانٌ إلى المعنى القرآنيِّ وإلى المُتلقّيه جميعًا. والطِّباقُ مع الاتّفاق في الصّيغة ترابطٌ شديدٌ بين قِسْمَيِ المعنَى في الآية.

دلالةُ إضافةِ الأحسنِ والأسوأ إلى الموصول:

القصدُ إلى التّحقيقِ والتّوضيحِ من غيرِ اعتبارِ تفضيلِهِ عليه

أضاف القرآنُ ﴿بِأَحۡسَنِ﴾ إلى الموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وكذلك أضاف ﴿أَسۡوَأَ﴾ إلى ما بعده في قوله: ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، وهذه الإضافةُ ليست من قبيل إضافة المُفضَّلِ إلى المُفضَّلِ عليه؛ بل من إضافة الشّيءِ إلى بعضِه - نحوُ: (خاتم فضّة) - للقصد إلى التّحقيق والتّوضيح من غير اعتبار تفضيلِه عليه؛ وإنّما المُعتبَرُ فيهما مُطلقُ الفَضْلِ والزّيادةِ لا على المُضافِ إليه المُعيَّن بخصوصِهِ؛ خلا أنَّ الزّيادةَ المُعتبرةَ فيهما ليست بطريق الحقيقة؛ بل هي في الأوَّلِ بالنَّظر إلى ما يليقُ بحالِهم من استعظامِ سيّئاتهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12.

وإنْ قلَّت، واستصغارِ حسناتهم وإنْ جلَّتْ، والثّاني بالنّظر إلى لُطْف أكرمِ الأكرمين من استكثارِ الحسنة اليسيرة ومقابلتِها بالمَثوبات الكثيرة، وحَمْل الزّيادة على الحقيقة[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بالصِّلةِ والموصولِ:

مِـن حـقِّ المُـحسـنين أنْ يفرحوا بعملِهم الحَسَنِ

بنى القرآنُ الكريمُ المعنى في هذه الجملةِ على الموصوليّةِ فقال: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقُل: (بأحسن عملهم)؛ لبيانِ كمال تميُّزِهم بالصِّلةِ؛ إعلامًا بهم؛ لكمال مدحهم؛ فهم بها يُعرفون، يؤكِّد هذا قيمةَ الصِّلةِ في السّياقِ لدلالتها على عملِ المحاسِن والصّالحاتِ على جهةِ الاستمرارِ حتّى كان عملُها من ديدنِهم. وفيه أيضًا مدحُ عملهم بأنَّه كان محلَّ الاتّساءِ والاقتداءِ والاحتذاءِ؛ ولهذا عبَّر القرآنُ بما هو أخفُّ غموضًا وإبهامًا من (ما) وهو ﴿ٱلَّذِي﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلَّذِي﴾ دون (ما)

اللـه ﷻ عنده حسنُ الجزاء

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دون (ما) كما في سورة (النَّحل) في قوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النَّحل: 97].

والنّاظر في الموضعَيْن يجد اختلافًا في استعمالِ الموصوليّة؛ ففي سورةِ (الزُّمر) جاء التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِي﴾، وفي سورة (النَّحل) بـ ﴿مَا﴾ [النَّحل: 97]، وإن اشتركا في الموصوليّة إلّا أنّ الاستعمالَ جاء مناسبًا لسياقِ كلِّ سورةٍ منهما؛ فآيةُ (النَّحلِ) لمّا افتتحت بـ ﴿مَا﴾ [النحل: 96] الموصولةِ في قوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ [النحل: 96]؛ والمُراد بها الإطلاقُ والعموم؛ كانت في هذا الموضع أوْلَى من لفظ (الذي)؛ أمّا في موضع (الزُّمر)؛ فجاء التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِي﴾؛ لأنَّها لا تُفارق الموصوليّة؛ فهي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 600.

أعرقُ في التَّعريفِ من (ما)؛ لخروجِ (ما) عن الموصوليّةِ فتردُ شرطًا واستفهامًا، ولا يفارقها العمومُ والإطلاق؛ لذلك كان التَّعبيرُ في (الزُّمر) بـ ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لأنَّها واردةٌ في سياقِ الخصوصِ المقصودِ به طائفةٌ بعينها يُؤكِّد ذلك ما ورد قبْلها من قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾، والمقصودُ بذلك رسولُ الله ﷺ، والذي صدَّق به مُتقدّمو الصّحابة ﷺ، وهذا مقامٌ مخصوصٌ لا يُشاركُهُم فيه غيرُهُم؛ لذلك ناسبَ التّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما)[1].

سِرُّ التَّعبير بالكَوْنِ مع الأحسنِ مع عدمِ ذِكْرِه مع الأسوأ:

الإحسانُ في طَبْعِهِم، والسَّيِّئ عارِضٌ عليهم

عبَّر القرآنُ بمادّة الكونِ ﴿كَانُوا۟﴾ - وكان من المُمكن أنْ يُقال: (أحسن الذي عملوا)؛ كما سَبَقَ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ ليحصلَ التَّعادُلُ بين قِسْمَي المعنى -، ولكنّه عَبَّرَ بالكَوْنِ مع الأحْسَنِ؛ لإفادةِ أنَّ هذا العملَ منهم كان شأنًا من شئونهم، وجُزْءًا من طباعهم، وأنّ الصِّدْقَ ديدنُهم، فهم يُداومون على ذلك العملِ، ولم تأت (كان) مع (الأسوأ)؛ لأنَّ الأسوأ لم يكن شأنَهم، ولم يكن المألوفَ منهم؛ بخلافِ عملِ الأحْسَنِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿كَانُوا۟﴾:

عملُ الأحسنِ راسخٌ في طباعِ المؤمنين حقَّ الإيمانِ

جاء التَّعبيرُ بفعل الكونِ ماضيًا في قوله: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للتّأكيد على أنَّ عملَ الأحْسَنِ والحَسَنِ في طباعهم مع دلالته على الوقوعِ في الدّار الدّنيا[2]، وفيه إشارةٌ إلى رسوخِ العملِ الأحسنِ في طباعِهم.

سِرُّ تَكرارِ العملِ في الفاصلةِ القرآنيّة:

أدركوا عِظَمَ القرآنِ؛ فعمِلوا به

كرَّر القرآنُ ذِكْرَ العملِ في الفاصلةِ ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ معَ إمكانِ الاستغناءِ عنه، أوِ التّعبيرِ بضميرِه بوجهٍ من وجوهِ النَّظْمِ العديدةِ؛

(1) الغرناطي، ملاك التأويل، ص: 310.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 600، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 244.

للإشارةِ إلى أنّهم لم يَكتفوا بالتّصديقِ القلبيِّ بالصِّدْقِ؛ وإنّما اجتهدوا في العملِ أيضًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

نظَم القرآنُ معنَى العملِ فعلًا مضارِعًا في قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنّه نِتاجُ كلمة الكون الماضي؛ فهم مستمرّون مُداوِمون في العمل الحَسَنِ والأَحْسَنِ مُكرِّرونه مُجدِّدون له وقتًا بعد وقتٍ؛ لأنّه في طبائعهم؛ فهم عريقون في تعاطيه؛ فمَن كان في هذه الدّنيا مُحْسِنًا في وقتٍ ما يعبدُ اللّه كأنّه يراه؛ فهو في الآخرة في كلِّ حين يراهُ، وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالمضارعِ موافقتُه للفواصلِ قبلَه وبعدَه[1].

أهـلُ الإحسـانِ مُـداوِمـون ومُستمرّون في العملِ الأحسنِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العملُ والفعلُ والصّنعُ:

العملُ والفِعْلُ والصُّنْعُ... إلخ، أُسْرةٌ لغويّةٌ واحدةٌ تشترك في معنًى عامٍّ، وهو عملُ شيء بالجارحَةِ، ثمّ لكلِّ لفظٍ معنًى يختصُّ به؛ لأنَّ الفِعْل لفظٌ عامٌّ؛ فيُقال لِما كان بإجادةٍ، وبدونها، ولِما كان بعِلْم أو غير عِلْم، بقصد، أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان من الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ. وأمّا العملُ: فإنّه لا يُقال إلّا لِما كان من الحيوان دونَ ما كان من الجمادِ، ولِما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ.

الفِعْلُ أعمُّ من العملِ الذي هوَ أعمُّ من الصُّنْعِ

وأمّا الصُّنْعُ في اللّغةِ فهو عملُ شيءٍ بمهارةٍ وحذقٍ وإجادةٍ، والصُّنْعُ هو ترتيبُ العملِ وإحكامُه بناءً على الخبرةِ التي اكتسبها، ولا يجوز نسبتُه إلى الجمادِ أو غيرِ العاقلِ، وعلى ذلك فالصُّنْعُ أخصُّ المعاني الثّلاثة، والفعلُ أعمُّها، والعملُ أوسطُها، فكلُّ صنعٍ عملٌ؛ وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 600.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 321 - 323، والراغب، المفردات: (صنع)، و(عمل)، و(فعل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-81-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-81-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»